سورة الانفطار

مكية، وهي عشرون آية مع البسملة

سورة الانفطار تسلسلٌ لموضوع سورة التكوير، وقد فُصِلت عنها لكونها حلقةً مستقلة من حلقات سلسلتها. موضوعهما واحد، ولكن هذه السورة تبرز الجانبَ الآخر من الموضوع.. حيث بين الله تعالى فيها أمورًا تخصّ المسيحيين.

أما فيما يتعلق بالحِكَم الكامنة في بيان هذا الموضوع الواحد في جزْءين أو سورتين، فالحكمة الأولى أنَ بعض أجزاء الموضوع تكون ذات أهمية قصوى، فتُذكر منفصلةً من أجل التركيز عليها. والحكمة الثانية هي أن هذا الأسلوب هو إحدى ميزات القرآن، ورغم أنه أمر بسيط في الظاهر إلا أنه ينفع المؤمنين بالقرآن الكريم كثيرا، وبيانه كالآتي:

هناك وعد رباني بحفظ القرآن الذي هو آخر الكتب السماوية، وكان ترسيخ مضامينه في قلوب المؤمنين من أهم الحاجات. إذا كان أتباع الصحف السابقة قد نسوها فلا بأس في ذلك؛ إذ كان من المقدَّر أن تأخذ مكانها صحف أخرى، ولكن لو نسي القرآنَ أتباعُه، وهو آخر الشرائع، لهلكت الدنيا ووقع الناس في ضلال أبدي. فاتخذ الله لذلك تدبيرًا يبدو بسيطا ولكنه هام جدًّا من حيث النتائج بحيث يصعُب تقدير قيمته ومدى نفعه. فأنزل القرآنَ الكريم مجزَّأً، وجعل بعض أجزائه صغيرا وبعضها كبيرا، فيستطيع الطفل الصغير حفظ بعض أجزائه، كما يستطيع الكبير أن يحفظ قسطا أكبر منه، ويمكن أن يحفظ بعضَ أجزائه أضعفُ الناس ذاكرةً، ويحفظ أصحاب الذاكرة الأقوى أجزاءً أكبر منه. فسورتا الإخلاص والكوثر مثلاً صغيرتان جدا بحيث تُكتبان في سطر واحد بخط صغير، ويستطيع حِفْظَهما عن ظهر قلبٍ طفلٌ بسيط الذاكرة في الرابعة من عمره. أما سورة البقرة

فهي تساوي جزءين ونصف الجزء من الثلاثين جزءاً من القرآن. ثم هناك سور متفاوتة الطول ما بين خمس آيات وعشر آيات حتى ٣٠ و٦٠ و١٠٠ آية، وكل إنسان -أيًا كان مستوى ذاكرته- يستطيع حفظ سورة من سوره، أما قوي الذاكرة فيستطيع حفظ القرآن كله. وهذا ما يحدث فعلا، والمسلمون المتعلمون يحفظون سورًا من الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم على قدر وسعهم، وهكذا تجد مئات الآلاف من الحفاظ لشتى أجزاء القرآن الكريم.

هذا الأمر يبدو بسيطا في الظاهر، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا كان هذا التدبير من قِبل بشرٍ فلماذا لم يخطر ببال أحد قبل محمد ﷺ منذ أن خُلقت الدنيا أيًا كان عمرها؛ ستة آلاف سنة أو مئة ألف سنة أو مليون سنة؟ هناك احتمالان فحسب، فإما أن القرآن من كلام بشرٍ أو من كلام الله تعالى. لو قيل إنه كلام بشرٍ فنقول: هذه الميزة لا توجد في كلام أي بشر، ولم يخطر هذا التدبير في بال إنسانٍ، حتى لم يخطر ببال أحد بعد نـــزول القرآن أيضًا. أما إذا قلنا إنه كلام الله تعالى فلا بد من الاعتراف أنه تعالى قد أراد لهذا الكتاب أن يُحفظ عن ظهر قلب، ولذلك اتخذ هذا التدبير. لو قيل هو كلام بشر، فيثبت فضل القرآن أيضًا، إذ أحدث هذا الإنسان ثورة باتخاذ تدبير بسيط في الظاهر، أما إذا اعتبرناه كلام الله تعالى فلا بد من الاعتراف أيضا أن الله تعالى أراد بذلك حفظه.

ولو قال أحد ما دام الإنسان يقدر على حفظ أي جزء من أي كتاب، فأي خصوصية للقرآن في نـــزوله مجزَّأً؟ فالجواب: لا شك أن المرء يمكن أن يحفظ أي جزء من أي كتاب، ولكن هل بوسع كل إنسان أن يقرر أن يكون ذلك الجزء متكاملا في موضوعه؟ كلا، بل إن مؤلف الكتاب أو مُنـــزِّله هو الذي يمكن أن يخبر أيًّا من أجزائه متكاملا في موضوعه؟ علمًا أن كل سورة قرآنية ليست اسمًا لبضع آيات فحسب، بل إنها موضوع متكامل في حد ذاتها. لو حفظ أحد ثلاث آيات من سورة البقرة، فما الفائدة من ذلك؟ إذ قد لا تكون متكاملة في مضمونها، ولا يتضح معناها إلا بربطها بسياقها. أما سورة الإخلاص مثلا، فهي تحتوي على موضوع متكامل مع أنها لا تتجاوز سطرين. كذلك الحال لسورة الكوثر وسورة

المَسَد وغيرهما، فهي كلها متكاملة في موضوعها. ولكن لو جُمع من السور الأخرى ما يساوي إحدى هذه السور القصار فليس ضروريا أن يكون هذا الجزء المجموع متكاملا في موضوعه، أما إذا قام مترِّل الكتابِ بنفسه بتجزئة كتابه سهّل الأمر كثيرا على القراء. فثبت أن حفظ بضع آيات من القرآن الكريم لا يكون نافعًا بقدر ما تنفع أجزاؤه الحالية، ولن يؤثر في القلوب كما يؤثر بصورته الموجودة؛ ولأجل ذلك إذا سألتَ عددا من المسيحيين عما يحفظونه من مقاطع الإنجيل عن ظهر قلب، لوجدت أنهم لا يحفظون منه إلا بضعة مقاطع شهيرة، ولن تجدهم حتى بمجموعهم يحفظون الإنجيل كله. أما لو سألت المسلمين عما يحفظونه من القرآن لوجدتَ أن غير الحفاظ منهم أيضا يحفظون القرآن كله بأجزاء مختلفة؛ فبعضهم يحفظ سورة البقرة، وبعضهم سورة آل عمران، وبعضهم سورة النساء، وبعضهم عديدًا من سوره الأخيرة. إذًا فتقسيم القرآن الكريم إلى أجزاء متفاوتة الطول والقصر قد ساعد في حفظه، وهذا كان مستحيلا لو كُتب مرة واحدة. وبسبب هذه الحكمة فقد جُعل القرآن مقسَّمًا مجزَّأً.

باختصار، فرغم أن موضوع هذه السورة تسلسلٌ لموضوع السورة السابقة، إلا أنها فُصلت عنها لتنبّه إلى مضامين جديدة أخرى. هي حلقة من السلسلة السابقة، ولكنها تختلف عنها في نواح أخرى. وكما قلت فإن من خصوصيات القرآن أنه كلما تنوّع الموضوع فيه بيّنَه في سورة منفصلة، لكيلا تشقّ قراءته وحفظه على الضعفاء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

انفطرتْ: انفطر الشيءُ: انشقّ. (الأقرب)

التفسير: يشير قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ إلى ذلك الانقلاب الذي كان سيحصل في الزمن الأخير، والذي هو خاص بالمسيحية، أعني أن هذه السورة تشير إلى غلبة المسيحية. قال الله تعالى في سورة مريم ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾(الآيات:٩١-٩٢). لم تكن المسيحية عند نزول القرآن الكريم غالبة إلا على مناطق قليلة، ولم يكن أهلها يبشِّرون تبشيرا عاما، ومع ذلك وصف الله شركهم بأنه تكاد السماوات يتفطرن منه؛ أما وقد تفاقم شركهم اليوم عشرة أضعاف بل مئة ضعف فيصح القول بحسب محاورة القرآن الكريم: قد انفطرت السماء فعلاً بشركهم. لما نزل القرآن لم تكن هناك دولة مسيحية إلا الدولة الرومانية، ولكنها لم تكن تحكم العالم كله، وإنما كانت تحكم تركيا ومصر والحبشة واليونان، أي أنها كانت تحكم جزءًا من آسيا الوسطى؛ أما اليوم، فالمسيحية غالبة على العالم كله، كما اتخذ المسيحيون للتبشير من التدابير ما لم يتخذوه في الماضي قط. لقد نشروا ملايين الملايين من نسخ الإنجيل في العالم، وينفقون الملايين لإنجاح مراكزهم التبشيرية، ويفتحون المدارس ليجعلوا النَشْءَ صيدا للمسيحية، وينشئون الكليات لتسميم قلوب الشباب باسم المسيحية، ويؤسسون مستشفيات للمجذومين وغيرهم من المرضى، وليس هدفهم وراءها إلا أن يجعلوا الناس يتركون عبادة الإله الواحد، ويؤمنون بآلهة ثلاثة. فما دام الله تعالى قد وصف غلبة المسيحية المحدودة بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾، فحري بنا أن نقول الآن وقد انتشر شركهم في العالم كله، وبلغت غلبة المسيحية ذروتها: إن السماء التي كانت على وشك الانشقاق من قبل قد انفطرت الآن فعلاً من شدة شركهم. إذا زدتَ الضغط على الشيء المضغوط إلى أقصى مداه سلفًا انفجرَ ولم يعدْ سالمًا، ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾. وكأنه تعالى يقول: قد قرُب الزمان الذي كنا نقول عنه أن السماء والأرض على وشك الانشقاق من سوء العقيدة الوثنية المسيحية، ولو ازداد شركهم قليلا فينفطران فعلاً، إذ سينصبّ

تركيزهم على ادعائهم أن الله تعالى قد اتخذ ولدا، فتنفطر السماء بسبب بلوغ ظلمهم منتهاه.

إذًا، فالمراد من انفطار السماء غلبة المسيحية وانتشار شركها في العالم بكثرة. والحقيقة أن المسيحية قد أحرزت اليوم من الرقي والغلبة ما لم يوجد له مثيل حتى في زمن ازدهار الإسلام أيضا. الفرق الوحيد أن الإسلام قد حقَّق الازدهار بقفزة واحدة، أما المسيحية فحققته في عشرات القفزات، ثم إن رقي الإسلام كان مُعجزًا، أما رقي المسيحية فليس فيه أي إعجاز. ولكن فيما يتعلق بالمقاييس المادية فإن غلبتها قد فاقت غلبة الإسلام بلا شك. وسببه أن الإسلام يعلِّم أتباعَه العدل ولا يسمح لهم بالظلم، أما هؤلاء فلا يبالون بالعدل ولا يتورعون عن الظلم ولا يبالون بغصب حقوق الآخرين. لقد ظلّ هؤلاء ينتشرون في آخر أقطار الشرق والغرب، ويرسّخون عظمة المسيح عليه السلام في القلوب بحيث ستجد بين المسيحيين كثيرًا ممن لا يؤمنون بالآلهة الثلاثة، ومع ذلك لم يزُلْ تعظيم المسيح من قلوبهم. مرةً جاء لمقابلتي طبيب ملحد خلال زيارتي لإنجلترا، فرأيته أثناء الحديث يشن الهجوم على النبي ﷺ بين حين وآخر، فقلت له هذا الأسلوب ليس صحيحا، ويجب ألا تهاجم رسول الله ﷺ، ولكنه ظل كالآرية الهندوس يوجه هجوما تلو هجوم على رسول الله ﷺ. فلما رأيت أنه يستغلّ حلمي بهذا الشكل المشين، ولا يتورع عن مهاجمة النبي ﷺ، بدأت أكشف له حقيقة يسوعهم، ولم أتكلم كثيرا حتى احمرّ وجهه وقال لي: لماذا تذكر المسيحَ في حديثك؟ قلتُ إني أعلم أنك ملحد، ومع ذلك لم تزُلْ المسيحية من قلبك، لذلك سأتطرق إلى الحديث عن المسيح حتما. فقال: ولكني لن أتحمل أي شيء ضد المسيح. قلت: وأنا لا أستطيع سماع أي قول ضد الرسول ﷺ، وإذا استمررتَ في الهجوم عليه ﷺ، فلا بد أن تسمع مني عن المسيح ما لا يُعجِبك. فغضِب وترك الكلام وخرج.

لقد رأيت أن بعض الناس يفرحون بأن أوروبا قد انتشر فيها الإلحاد، وهذا دليل على أن أهلها قد تبرءوا من المسيحية، والواقع أن عظمة المسيح عليه السلام لم تزُلْ من قلوبهم رغم إلحادهم. وقد أدرك المسيح الموعود عليه السلام نقطةَ ضعفهم هذه، ومن

المؤسف أن المسلمين أصدروا فتاوى التكفير ضده للسبب نفسه. لقد أعلن عليه السلام أنه ما لم يتمّ دفن المسيح فلن تموت المسيحية (إزالة أوهام، الخزائن الروحانية ج ٣ ص ٤٠٢، والملفوظات ج ١٠ ص ٤٥٨ الحاشية). إنهم يعبدون المسيح فقط، ولا يبالون بالعقائد الأخرى، ولذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.. أي حين تحلّ البلية الكبرى ويحصل الظلم الذي ليس فوقه ظلم.

كما قد يكون المراد من انفطار السماء تقطُّع قلوب أهل السماء برؤية هذا الظلم، والمراد أن الله تعالى يكره هذا الأمر، كما أن ملائكته سوف يتأذون منه، وقلوب الأنبياء ستتألم برؤية هذا الظلم. لقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أيضًا أنه رأى المسيح في الحالة الكشفية يتألم ويضطرب بسبب هذا الظلم الذي يُرتكب باسمه على الأرض. (نور الحق، الخزائن الروحانية ج ٨ ص ٥٦)

باختصار، إن هذه الآية تنبئ أن المسيحية ستصبح غالبة، وأن السماء ستهيج برؤية هذا الظلم على الأرض الذي لم يسبق له مثيل، وهذه هي الآفة التي لا نظير لها.

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يذكر بهذا الصدد لطيفة ذوقية لأحد الصلحاء بأنه قال إن الشدّ والمدّ في قوله تعالى ﴿وَلاَ الضَّآلِّينَ﴾ يشيران إلى أن الفتنة المسيحية ستكون شديدة وطويلة.

وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الكواكب: جمعُ الكوكب، وكوكَبَ الحديدُ: بَرِقَ وتوَقَّد. والكوكبُ: النجمُ؛ نقطةٌ بيضاء تحدُث في العين؛ ما طال من النبات؛ سيدُ القوم وفارسهم؛ شدةُ الحرّ؛ السيفُ؛ الماءُ؛ المحبسُ؛ المسمارُ؛ الخطَّةُ يخالف لونُها لونَ أرضها؛ الطَلْقُ من الأودية؛ الرجلُ بسلاحه؛ الجبلُ؛ الغلامُ المراهق؛ الفُطْرُ؛ معظمُ الشيءِ؛ نَوْرُ الروضة؛ بريقُ الحديد وتوقُّدُه؛ والكوكبُ من البئر: عينُه الذي ينبع الماء منه؛ قطراتٌ من الجليد

تقع بالليل على الحشيش فتصير مثل الكواكب. ويقال: ذهبوا تحت كل كوكب: تفرقوا. يومٌ ذو كواكب: ذو شدائد. (الأقرب).

انتثرتْ: نثَر الشيءَ: رماه متفرّقًا. وتناثرَ وتنثّرَ وانتثرَ الشيءُ: تساقطَ متفرقا. تقول العرب: تفرّقَ القوم وتنثّروا. (الأقرب)

التفسير: الجدير بالتذكر هنا أن الله تعالى قال في السورة السابقة ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، بينما قال هنا ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾، وذلك لأن هذين خبران مختلفان يشيران إلى فرق خاص، ولذلك جاءت في السورة السابقة كلمة ﴿النجوم﴾، وهنا كلمة ﴿الكواكب﴾، كما جاءت في الأولى كلمة ﴿انكدرت﴾ وهنا كلمة ﴿انتثرت﴾. لا شك أن الانكدار يعني الانتثار أيضًا، ولكن السؤال هنا: لماذا غيّر الله الكلمات هنا مع أن تغييرها لم يكن ضروريا في الظاهر، خاصةً وقد جاءت في القرآن بعض الآيات بكلمات واحدة في ثلاثة أو أربعة أماكن؟ فليس من أساليب القرآن تغيير الكلمات حتمًا عند إعادة الموضوع في موضع آخر، إذ نرى أنه في بعض الأحيان يعيد الكلمات نفسها في مكان آخر. إذًا فلا بد من حكمة في استبدال (انكدرت) بـــكلمة (انتثرت). لو كانت (انكدرت) في السورة السابقة بمعنى (انتثرت) لم يكن من المستبعد أن يستخدم الله تعالى (انتثرت) مكان (انكدرت) هنالك، وإذا كانت (انتثرت) هنا بمعنى (انكدرت) لكان من الممكن أن يقول تعالى هنا (انكدرت) بدلاً من (انتثرت)، لوجود أمثلة عديدة في القرآن لإعادة آيات بنفس كلماتها. وعليه فاستبدال الكلمات هنا دليل على وجود فرق بين التعبيريْن من حيث المفهوم.

بعد هذه الكلمة التمهيدية أقول: إننا حين نرجع إلى القواميس لمعرفة معنى (النجم) يتضح لنا أن معناها الحقيقي هو أصل الشيء؛ فمن معاني النجم مثلاً النبات الذي لا ساق له؛ ومن المحتَّم أن النبات الذي لا ساق له لا يمكن أن يطول. وعلى النقيض نجد أن من معاني الكوكب ما طال من النبات، ومن معانيه أيضا سيد القوم وفارسهم، مما يعني أن في لفظ (الكوكب) مفهوم النبوغ والمهارة، لأن الفارس هو قائد القوم.

إذن، فكلمة النجم تشير إلى الأصل أو السلالة لا إلى النبوغ، أما كلمة الكوكب فلا تشير إلى الأصل بقدر ما تشير إلى النبوغ.

ثم إن من معاني الكوكب شدة الحرّ، مما يبين أن الكواكب إشارة إلى أُناس ذوي نشاط كبير وطبْع حماسيّ وتأثير ونفوذ على الآخرين كالسيف الماضي.

هذا الفرق يبين أن كلمتَي ﴿النجوم﴾ و﴿انكدرت﴾ في السورة السابقة وكلمتَي ﴿الكواكب﴾ و﴿انتثرت﴾ في هذه السورة لم ترد بلا سبب، بل وراءها حِكم بالغة.

الواقع أن الانكدار يعني تكدُّر الشيء، والانتثار يعني سقوط الشيء وتفرُّقه. وقوله تعالى في سورة التكوير ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ إشارة إلى أن الرؤساء عريقي النسب سيفقدون نفوذهم في عامة الناس، وقوله تعالى هنا ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ إشارة إلى أن أصحاب الفن والمهارة في حِرفهم الذين كانوا يتمتعون بالنفوذ بسبب مهارتهم لن يستطيعوا ذلك، أي أن الانقلابات الحاصلة نتيجة تقدُّم الأوروبيين ستقضي على قوة كبار أهل الفن والمهارة. وبالفعل نرى في هذا الزمن أن كلا الأمرين قد تحقق؛ فرغم أن العلماء موجودون في البلاد غير المسيحية، إلا أن نفوذهم قد زال، كما يوجد فيها كبار أصحاب المهارة والفن، ولكن لم يعُدْ لهم نفوذ ولا قوة. أما البلاد المسيحية فقد تشكلت فيها برلمانات نتيجة هذه الانقلابات، وانكسرت شوكة الأمراء والرؤساء عندهم، وأخذت أحزاب العمال والاشتراكيين مكان الأمراء وأهل الفن والمهارة. فثبت أن هذه الآية إشارة إلى الثورة الحاصلة نتيجة تقدُّم أهل أوروبا. لا شك أن هذه الثورة بدأت تقع في البلاد غير المسيحية تأثُّرًا من الأوروبيين، ولكنها ليست ثورة كاملة. وحيث إن هذه السورة تتحدث عن الشعوب الأوروبية المسيحية خاصة، فقد أخبر الله تعالى هنا أن الثورة الحاصلة في هذه الشعوب تكون كبيرة، بحيث إن أهل النفوذ – سواء من الأمراء أو من الأسر العريقة أو من أهل الفن والمهارة– كلهم سيسقطون، وتأخذ القوى الأخرى مكانهم، أما الشعوب غير المسيحية فإن الأمراء فيها سيفقدون نفوذهم نتيجة هذا الانقلاب.

وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

فجَّر: مثلُ فجَر، شُدّد للمبالغة. يقال فجَر الماءَ: فتَح له طريقا فجرى. وفجَر القناةَ: شقَّها وقيل شقًّا واسعًا. وفَجَّرَ الرجلَ: نسَبه إلى الفجور. (الأقرب)

التفسير: تشبه كلمات هذه الآية كلمات آية في السورة السابقة حيث قال الله تعالى هنالك: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، بينما قال هنا: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾. لقد قلتُ من قبل أن سورة الانفطار تتحدث عن موضوع خاص بالمسيحيين، لذا فإن كل الأمارات الواردة فيها تنطبق على هذه الأمة. فمن مفاهيم هذه الآية عندي أن المسيحيين في زمن رقيهم سيشقّون البحار حتى يوصلوا بعضها ببعض. وإن أبرز مثال على ذلك قناة السويس وقناة بَنَما، وكلتاهما قد شُقّتا بأيدي المسيحيين. لا شك أنه قد شُقَّت في العالم قنوات عظيمة أخرى، منها ما شَقَّه الفُرس، ومنها ما شقّه الأفغان والمغول. ولا شك أن الأوروبيين قد تقدَّموا في هذا الفن، ولكنهم ليسوا منفردين ولا سبّاقين في شقّ القنوات. أما شقّ البحار وإيصال بعضها ببعض فلا شك أنهم تفردوا في ذلك؛ إذ لم توصَل البحار من قبل بحفر الأرض هكذا. لقد فسّرتُ البحار في قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ في السورة السابقة بشقّ القنوات من الأنهار عمومًا، وذلك لأنها تتحدث عن الانقلابات العامة التي ستقع في الزمن الأخير، أما هذه السورة فتتحدث عن الشعوب المسيحية خاصة وتذكر علاماتها بشكل خاص. وحيث إن إيصال البحار بعضها ببعض بحفر الأرض أمر غير مسبوق، فلذلك فسّرت البحار هنا بمعناها المعروف نظرًا إلى أحوال المسيحيين الخاصة.

وقد يكون البحر هنا بمعنى العالم الكبير، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ إشارة إلى أن الفسق والفجور سيُعزى إلى القساوسة المسيحيين بكثرة. وهذا يعني أن هذه الآية تخبر أن المسيحية ستصبح غالبة على العالم وتنشر الشرك في الناس، كما تصبح الكنيسة نجسة وسخة تماما من جهة أخرى.

إذن، فالتفسير المادي لقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ يعني إيصال البحار بعضها ببعض، أما التفسير الروحاني فيعني أن الكنيسة تفسد كلية.

والمعنى الثالث لهذه الآية أن الأنهار ستُوسَّع في ذلك الزمن، وهذا ما نراه فعلاً في هذا الزمن، حيث قاموا بتوسيع مصبّات أنهار كثيرة في أوروبا وأمريكا فتمرّ بها سفن كبيرة. في الماضي كانت الأنهار تتفرع عند مصابّها في البحار وتصبح جداول صغيرة كثيرة، أما اليوم فقد عمَّقوا مصابّ كثير من الأنهار في فرنسا وألمانيا وأستراليا وإنجلترا وأمريكا؛ فتجري فيها السفن بسهولة. وفي بعض الأماكن تصل هذه السفن إلى عمق اليابسة عبر مصابّ هذه الأنهار العميقة إلى مسافة مئتي ميل، وهكذا تصل البضائع داخل البلاد وتخرج منها بسهولة وبكلفة زهيدة.

وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝

شرح الكلمات:

بُعْثرتْ: بعثرَ الشيءَ: فرّقه وبدّده. وبعثرَ الشيءَ: استخرجه فكشفه وأثار ما فيه. (الأقرب)

التفسير: وهذه العلامة أيضًا نراها جلية في هذه الشعوب المسيحية في هذا العصر. في الماضي كان الناس يعظمون المقابر تعظيما كبيرا بحيث يتضح لنا من التاريخ القديم أن الناس إذا وجدوا مقابر غيّروا خريطة بلدهم و لم يشيدوا مبانيهم هناك، وكانوا لا يطيقون التقصير في حرمة المقابر. أما هذه الشعوب الغربية المسيحية فلم يعُد عندهم احترام للمقابر إطلاقا. فعندما يريدون إنشاء مدينة، ينبشون القبور بكل جرأة، ويبنون مكانها ما يشاءون. لقد نبش هؤلاء مئات المقابر بلا هوادة عند بناء مدينة دهلي الجديدة. إذن، فأحد معاني هذه الآية أن المقابر ستُنبَش نتيجة الكثرة السُكّانية.

وبعثرة القبور تعني أيضا فتح المقابر القديمة، كما يحصل اليوم في مصر، حيث يحفرون قبور القدماء ويخرجون منها مومياواتهم. وهذا ما تشير إليه هذه الكلمة حيث ورد في القواميس: "بَعْثرَ القبرَ: استخرجَه فكشَفه وأثار ما فيه". والشعوب المسيحية الغربية

أيضا تقوم بحفر القبور المصرية، فيستخرجون منها المومياوات ثم يرسلونها إلى متاحف بلادهم، بعضها إلى إنجلترا وبعضها إلى فرنسا وبعضها إلى أمريكا وبعضها إلى روسيا. فكأنهم يقسمون فيما بينهم جثث الموتى كما تُقسَم أموال الإرث ليحتفظوا بها في متاحف بلادهم.

فالمسيحيون هم الذين استخرجوا جثث الموتى من القبور القديمة وكشفوها للناس ونشروها في مختلف البلاد. وأرى أن من واجب المسلمين حين ينالون الغلبة أن يعيدوا هذه الجثث إلى القبور مرة أخرى، لأن من المنكر جدًا إخراج الجثث من قبورها وعرضها للناس لأنها إساءة كبيرة للموتى. يجب أن يدفنوا مومياء فرعون مصر في الأرض ثانية، ويكتبوا على القبر اسمه.

وحيث إن القبر يُطلق على الأشياء المدفونة أيضا، فيمكن تفسير هذه الآية أن مدنًا كبيرة ستُستخرج من تحت الأرض في الزمن الأخير، وبالفعل نرى أن دفائن المدن القديمة تستخرج وتوضع في المتاحف وتوزع عليها.

إذًا فمن مفاهيم هذه الآية اكتشاف المكتبات القديمة، والعثور على المباني والمقابر القديمة في ذلك الزمن.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

التفسير: لماذا قال الله تعالى هنا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، و لم يقل: (علمت كل نفس)؟

أجاب بعض المفسرين على ذلك بأن الله تعالى قد سبق أن قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ في موضع آخر وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾(آل عمران: ٣١)، فاكتفى هنا بكلمة ﴿نَفْسٌ﴾.

أنا لا أنفي استعمال القرآن الكريم هذا الأسلوب، حيث يكتفي بالتلميح إلى أمر ما في موضع، ويفصّله في موضع آخر، ولا بأس في ذلك، ولكن لا أتفق مع استدلال المفسرين، وأرى أن كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ هنا إشارة إلى النفس المسيحية المذكورة من قبل، حيث جاء التنوين هنا على سبيل التحقير، والمعنى أن هذه النفس الحقيرة التي لا تعرف

خيرها من شرها، ولا تدري ماذا يجب أن تفعل أو لا تفعل، ستعرف يومئذ ما قدّمتْ وما أخّرتْ. لقد نبشوا القبور من ناحية، وارتكبوا شركًا كبيرًا انفطرت به السماء من ناحية أخرى، وكلا الأمرين تعافُهما الفطرة، فلذلك استخدم الله هنا كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ النكرة تحقيرًا لشأنهم، وقال ستعرف هذه النفس الحقيرة ما قدّمت وأخّرت. وكلمات ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أيضًا جاءت تحقيرا لأعمالهم. وقد أُشيرَ إلى الأمر نفسه في قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.. أي أنهم أسقطوا ذات البارئ تعالى الذي كان يجب أن يعظّموه، ورفعوا المسيح وأجلسوه على عرش الله تعالى، مع أنه عبد من عباده تعالى. وبالفعل ترى أن المسيحيين يتوسلون في أدعيتهم إلى المسيح لا إلى الله تعالى، وكأنهم -والعياذ بالله- قد أحالوا الله إلى التقاعد، ووضعوا مهمة الألوهية في يد المسيح عليه السلام. فأحد الأمثلة على صدق قوله تعالى عنهم ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أنهم أنزلوا الإله منـــزلة العبد ورفعوا العبد إلى درجة الإله. وثانيا إنهم قد نبشوا قبور الموتى القدماء ووضعوها في المتاحف ليتفرج عليها الناس. وحيث إن قوله تعالى ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ تعني التقديم والتأخير، فالمعنى أنهم سيدركون ما فعلوا وما لم يفعلوا، وما فضّلوا وما لم يفضّلوا.. بمعنى أن هذه النفس الذليلة الحقيرة ستدرك يومئذ أي الأعمال كانت أحق بالقيام بها، وأيها كانت أولى بالترك.. أي أنها ستدرك أنها لم تعمل ما كان يجب أن تعمله، وعملتْ ما لا يليق بالعمل.

ويمكن تفسير هذه الآية بمعنى آخر، وهو أنه حين تقع الأحداث المذكورة آنفًا- أي انتشار الشرك، وانكسار شوكة الملوك والرؤساء، وإيصال البحار بعضها بعض، ونبش القبور وكشفها وتفريقها - سيهيئ الله عندها من الأسباب ما يجعل هذه النفس الحقيرة، التي أخذت أمر ألوهية الله بيدها، تدرك ماذا كان يجب عليها أن تفعل وما لا تفعل.. أي سينكشف عليهم شناعة شِركهم وفداحة خطأ التكالب على الدنيا، فيعودون إلى التوحيد ثانية نادمين على أخطائهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦

شرح الكلمات:

غَرَّك: يقال ما غرَّك بفلان، أي كيف اجترأتَ عليه. (الأقرب)

الكريم: ذو الكرم. (الأقرب)

التفسير: هنا أيضا ليس المراد من الإنسان كل إنسان، بل الإنسان المذكور في قوله تعالى ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، حيث يقال له: يا أيها الإنسان الدنيء النفس ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ أي ما الذي جرّأك على ربك الكريم؟ بمعنى كيف تجرّأتَ على معصية الله وأمنت عقابه، و لم تكن هذه الجرأة جائزة لك.

علمًا أن كلمة ﴿الكريم﴾ وردت هنا لتشنيع جرأتهم هذه على ربهم حيث بين الله تعالى أن جرأتهم لم تكن عملاً لائقًا على الإطلاق. ذلك أن من الأفعال التي يأتيها المرء لا تليق به نظرًا إلى مكانة مَن يتعامل معه، ولذلك استخدم الله تعالى كلمة ﴿بربك﴾ وقال لهذا الإنسان: كيف تجاسرتَ بهذه الفعلة على الذي هو ربك؟ ثم قال (الكريم)، ليبين أن فعلتك لا تليق بك إطلاقا، لأنه تعالى ليس ربّك فحسب، بل هو ربك الكريم؛ فكان عليك أن تخجل وتستحيَ من التجاسر على مثل هذا الرب الكريم، بدلاً من الكفران بنعم هذه المحسن، والإساءة إليه. المرء إذا أبدى الجرأة في موضعها كان شرفًا له، ولكنه إذا أبداها في غير محلها كان تهوُّرًا منه. فتجاسرك هذا لؤم وخسة ورذيلة، حيث أسأت إلى محسنك وعصيت ربك الكريم بدلا من أن تذعن له وتنقاد، وابتدعتَ العقائد التي لا تليق بعظمته تعالى.

لقد ذكر المفسرون أقوالا عجيبة غريبة حول قوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. فكتب بعض الصوفية مثلاً أن الله تعالى قد علّمنا بقوله هذا كيف نجيبه إذا سألَنا عن جرائمنا؟ وكأنه تعالى قال لنا: عليكم أن تجيبوا: إن ربنا كريم، فهذا ما غرَّنا وأوقعَنا في المعاصي. "وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله: إنْ أقامك الله يوم القيامة وقال لك: ما غرَّك بربك الكريم، ماذا تقول؟ قال أقول: غرّتْني سُتورُك المُرخاة" (تفسير حقي البروسي، والكشاف).. أي أن عفوك وإحسانك قد جعلني مغرورًا.

لقد تبادرت أذهان هؤلاء القوم إلى مثل هذه الأقوال لأنهم لم يتدبروا في مفهوم هذه السورة كلها، وإنما أخذوا فقرة منها وقاموا بهذا الاستنتاج. ولو أنهم أدركوا أن هذه السورة إنما تتحدث عن أعداء الإسلام لما اعتبروا قوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ متعلقًا بالمسلمين.

في بلادنا أيضا يقال: كَرَمُك جعلني جريئا، ولكن هذا التعبير لا يصحّ إلا على سبيل الاستعارة لا على وجه الحقيقة. فلا تعني الجرأة عندها معناها المعروف، بل يراد بها التباسط وعدم التكلف، والمراد أن الإنسان يقول في تباسطه أحيانًا ما لا يقوله في جدِّه. ولكن لا يصحّ هذا التعبير إطلاقا بالمعنى المعروف للجرأة، لأن الكرم لا يجعل الإنسان وَقِحًا، بل يزيده حبًّا وطاعةً لمن أحسنَ إليه. لا شك أن هذه الجملة قد استعملها المسيح الموعود عليه السلام (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٦٦٢)، ونستعملها نحن أحيانًا، ولكنها بالمفهوم الذي ذكرته، إذ الواقع أن الكرم لا يجعل الإنسان جريئًا مسيئا إلى من أكرمَه.

ويذكر المفسرون واقعة لعلي رضي الله عنه لدى تفسير هذه الآية، فيقولون إنه رضي الله عنه صاح بغلام له مرات فلم يُلَبِّه. فنظَر فإذا هو بالباب، فقال له: ما لك لم تُجبْني؟ قال: لِثِقَتي بحلمك، وأَمْني مِن عقوبتك. فاستحسنَ جوابه وأعتقَه. (الكشاف)

ويقول المفسرون أن هذا الحادث أيضا يؤكد أن قوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ يشير إلى أن أنواع العنايات الربانية والعفو الإلهي تجرّئ الإنسان على الذنوب!

لا بأس بهذه الواقعة لو اعتبرناها أمرًا ذوقيا، ولكن لا علاقة لها إطلاقا بقوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، إذ نستطيع القول إن الخادم لما وجد عليّا رضي الله عنه ساخطًا عليه أجابه بهذا الجواب اللطيف، فأُعجبَ به علي رضي الله عنه. ولكن ليس هناك دليل على أن الآية قيد التفسير تشير إلى هذا المعنى نفسه. كلا، إنما هو من الأمور الذوقية فحسب. فمثلا يقول الشاعر سعدي بالفارسية:

پادشاهاں گاهے بسلامے برنجند وگاهے به دشنام خلعت دهند

(گلستان سعدي ص ٩)

أي أن الملوك أحيانًا يسخطون بالمدح، وأحيانًا يكافئون على السبّ. ولكن مثل هذه الأقوال لا تُستنبط منها الأصول، وإنما نقول بشأنها إن للناس أذواقًا متنوعة، كما أنهم يمرّون بأحوال مختلفة في أوقات مختلفة، فيفرحون بسماع قول حينًا، ويسخطون بسماعه حينًا آخر. فمثلاً يحكى عن الملك المغولي "جهانغير" أنه حينما كان أميرًا ناولَ خادمتَه "نورجهان" حمامتين، فانفلتتْ إحداهما من يدها، فرجع "جهانغير" بعد قليل وسألها عن الحمامة الأخرى؟ فقالت: طارت. فسألها غاضبا: كيف؟ فأفلتت الحمامة الثانية من يدها وقالت: هكذا. فأُعجبَ مِن بساطتها وعَشِقَها. ولكن أباه عارضَ زواجه منها، فتزوجتْ من شخص آخر، ولكن توفي زوجها بعد فترة، فتزوجها "جهانغير" بعد موت أبيه. (تاريخ هندوستان للمولوي ذكاء الله، المجلد السادس ص ٧٣)

فأحيانًا يعجبك الجواب الخاطئ أيضا، ولكن لا يمكن أن نعتبر ذلك تفسيرًا لهذه الآية، إذ من الممكن أن عليًّا ﷺ لما سمع جواب هذا الغلام الخادم أُعجب ببراعته في التخلص من العقاب فأعتقه، رغم ما في جوابه من إساءة. إنه في كل حال حادث شخصي، ولا نبني تفسير القرآن الكريم على مثل هذه الأحداث.

لقد أورد الإمام القشيري في كتابه "شرح الأسماء" قصة عجيبة ذات عبرة، وإني معجب بها جدًّا. علمًا أنها هي الأخرى ليست تفسيرًا لهذه الآية، إلا أني أسجلها لأبين كيف أن الفطرة الإنسانية تهرب من العقوبة بحيل بارعة. يقول القشيري إن أحد الصلحاء قال: رأيتُ في سوق البصرة جنازة يحملها أربعة وليس معهم مشيِّع، فقلتُ: لا إله الا الله! سوق البصرة وجنازةُ رجل مسلم لا يشيّعها أحد؟! إني لأُشيّعها، فتبعتُها. ولما دفنوه سألتُهم عنه، فقالوا لا نعرفه، وإنما استأجرتْنا تلك المرأةُ، وأشاروا إلى امرأة واقفة قريبا من القبر، ثم انصرفوا. فرفعت المرأةُ يدها إلى السماء تدعو، ثم ضحكتْ وانصرفت. فتعلّقتُ بها وقلتُ لا بد أن تخبريني بقضيتك. فقالت: إن هذا الميت ابني، و لم يترك شيئا من المعاصي إلا فعَله. فمرِض ثلاثةَ أيام، فقال لي يا أمي، إذا متُّ فلا تُخبري الجيرانَ بموتي فإنهم يفرحون بموتي ولا يحضرون جنازتي... ولكن اكتُبي على خاتمي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وضَعيه فى أصبعي، وضَعي رِجْلَك على خدّي إذا متُّ وقُولي: هذا جزاءُ مَن عصى اللهَ. فإذا دفنْتِني فارفعي يديك إلى الله

وقُولي: اللهم إني رضيتُ عنه فارضَ عنه. فلما مات فعلتُ جميع ما أوصاني به. فلما رفعتُ يدي إلى السماء ودعوتُ سمعتُ صوتَه بلسان فصيح: انصرِفي يا أمي، فقد قدِمتُ على ربّ كريم رحيم، فرضيَ عني، فلذلك ضحكتُ سرورًا بحاله. (نقلاً عن تفسير روح البيان للبروسي)

الله أعلم ما إذا كانت هذه القصة صحيحة أم باطلة، والإمام القشيري عالم كبير، فلعلّه كتبها بعد تحرّي الأمر. لقد قال رسول الله ﷺ إن المرء يظل يرتكب أعمال أهل النار حتى يكاد يسقط فيها، ولكن يكون في قلبه خير خفي، فتحميه يد فضل الله تعالى من السقوط فيها، فيدخل الجنة. وإن المرء ليعمل أعمال أهل الجنة حتى يكاد يدخلها، ولكن يكون فيه شرٌّ خفيّ، فيظهر ويلقيه في الجحيم (البخاري: كتاب القدر، باب في القدر). فسواء أكانت هذه القصة حقيقة أم من نسج الخيال إلا أنها تحمل درسًا هامًّا، ولذلك أحبّها كثيرا، وقد ذكرتُها هنا رغم أنها لا تمتّ إلى تفسير هذه الآية بصلة. فقولُ هذا الابن لأُمه "ضَعِي رجلك على خدّي إذا متُ وقُولي: هذا جزاءُ من عصى الله" يدلّ على أنه كان في قلبه خير، ففكّرَ أنه قد ارتكب من المعاصي بحيث لا يقدر لسانه على التفوه بكلمات التوبة إلى الله. غير أني أرى أن قوله هذا لأمه كان بمثابة التوبة العَملية منه، ويبدو أن الله تعالى سُرَّ بفعله هذا فأدخله الجنة. فكما قلتُ سواء أكانت هذه القصة حقيقة أم أسطورة، إلا أن فيها درسًا رائعا يكشف لنا سعة مغفرة الله تعالى.

وإزاء هذه الأقوال الذوقية التي ذكرها أصحاب التفاسير، نجد الصحابة قد اتبعوا الطريق اللائق بالإنسان العاقل، فلم يميلوا إلى الأقوال الذوقية بل ذكروا ما يثبت من هذه الآية. فقد قال سفيان إن عمر رضي الله عنه سمع رجلا يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، فقال عمر: الجهلُ. (ابن أبي حاتم عن ابن كثير). ونقل ابن أبي حاتم قول ابن عمر: "غرّه، والله، جهلُه". وروي عن ابن عباس والربيع بن خيثم والحسن البصري مثل ذلك. وقال قتادة: ما غرَّ ابنَ آدم غيرُ هذا العدو الشيطان. (ابن كثير)

و لم يقل الصوفية هنا ما قالوا إلا لأنهم رأوا أن الله تعالى قد وجّه هنا سؤالاً إلى الناس بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، ثم علّمهم الجواب أيضًا بإضافة كلمة

﴿الكريم﴾، وكأنه تعالى قال: إذا سُئلتم ذلك فقولوا إن عَفْوَ ربِّنا الكريم وكرمَه هو الذي شجّعنا على المعاصي!

ولكن ما نراه على صعيد الواقع هو أن الناس لا يجرؤون على ارتكاب الذنوب نتيجة عفو الله تعالى، وإنما سببه اتّباعُهم الشيطانَ، أو هو راجع إلى جهالتهم؛ ولو أنهم فقهوا أحكام الله تعالى وأدركوا أهمية طاعته وأعملوا بصيرتهم لما ارتكبوا هذه المعاصي. لا شك أن المؤمن يؤمن بأن الله كريم، ويوقن بعفوه وغفرانه كل لحظة، ولكن لا يصحّ أبدًا أن نعتبر كرمه سببًا لارتكاب المعاصي. لقد صرح الله تعالى في القرآن أن أكبر سبب لوقوع الإنسان في الذنوب جهالتُه: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام: ٥٥). فالحقيقة أن الذي يرتكب الإثم إنما يرتكبه عن جهالة؛ إذ لا يرتكب الإثمَ عمدًا إلا الكافر. لذا يجوز لنا القول إن الإنسان يغترّ باتباعه الشيطانَ، أو أن جهالته هي التي تجعله مغرورا، ولكن لا يجوز القول أن كرم الله وعفوه هو الذي يدفع الإنسان إلى هذه الجرأة والغرور؛ اللهم إلا أن نعتبره نتيجة غير طبيعية للكرم، مما يدل بحد ذاته على مرض في قلب هذا الشخص. إن كرم الله يزيد الإنسان إيمانًا وعرفانًا وليس جرأةً على ارتكاب الذنوب. فمن الخطأ تمامًا القول أن كرم الله تعالى يجرّئ الإنسان على الذنوب. لا شك أن المؤمن يوقن بكرم الله تعالى أيما إيقان، ويرجو رحمته دائما، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: أي داعٍ لمثل هذا الحديث في هذا السياق؟ إذ إن هذه الآيات تتحدث عن الكافرين، وكأن هؤلاء الصوفية يقولون أن الله تعالى سيقول للكافرين إني حين أسألكم عن سبب ذنوبكم فقُولوا: كنتَ كريما بنا، وكرمُك هو الذي غرَّنا. هل يقبل العقل السليم أن يكون سياق الآيات يشير إلى سخط الله على الكافرين من ناحية، ومع ذلك يتحدث الله معهم كما يتحدث الحبيب إلى حبيبه؟ لو كان الحديث هنا عن المؤمنين، لكان من المعقول -إلى حدٍّ ما- قبول ما يقولون، ولكن الحديث هنا عن الكافرين وعن سخط الله عليهم، حيث يقول تعالى إنهم قد ارتكبوا جريمة تكاد تنفطر السماء منها. ولكن هؤلاء الصوفية يخبروننا أن الله تعالى بنفسه قد علّم المجرمين ما يجيبون به عند السؤال عن جريمتهم، فقال لهم: لا شك أن جريمتكم كبيرة جدا،

ولكن إذا سألتُكم فأجيبوني بهذا الجواب ولسوف أغفر لكم. من المستحيل أن يكلم الله تعالى الكافرين بمثل هذا الكلام اللطيف وهو يريد إنزال العذاب الشديد عليهم. لا ندري ما الذي دعا الصوفية لأن يفسروا هذه الآية بهذه الأقوال، مع أنها تعني أن الواجب عليكم أن تَسْتَحوا أمام ربكم الكريم، ولكن قد دفعتكم وقاحتكم إلى عدم الاكتراث بربكم الكريم أيضا.

هناك واقعة للنبي ﷺ تبين أن الكريم يُستحى منه. ورد في الحديث أَن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ. ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ. ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ... فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَاله، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَاله، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ؟ فَقَالَ: أَلا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلائِكَةُ. (مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل عثمان).

فنرى أن النبي ﷺ قد استحى من عثمان رضي الله عنه لأنه كان كثير الحياء. فكيف نصدق بعد ذلك أن الله الذي هو رب كريم هو نفسه قد جرّأ الناس على الذنوب؟ أرى أن قوله تعالى ﴿رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إنما يشير أنه كان من واجب الإنسان أن يطيع ربه الكريم على الأقل، لا أن يعصيه.

وأرى أن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إنما يشير إلى المسيحية بأسلوب لطيف، لأنها تركّز في زعمها على رحمة الله تركيزًا كبيرا، بل إن أساسها أن الله محبة، وأنه رحيم (رِسَالَةُ يُوحَنَّا الرَّسُولِ الأُولَى٤: ٨، ولوقا٦: ٣٥-٣٦). لا شك أن المسيحيين يعتبرون الله تعالى جدَّ ظالم - والعياذ بالله - فيما يتعلق بالأمور التفصيلية، زاعمين أنه تعالى لا يقدر أن يغفر للناس ذنوبهم، ولكنهم يركّزون أيضًا على رحمة الله كثيرا؛ فيرد الله عليهم أن الغريب أنكم تسمّون الله كريما من جهة، ثم تعزون إليه صفات تنافي كرمه، فتتخذون له ولدًا ظانين أنه تعالى حين لم يجد طريقًا لغفران ذنوب الناس ضحّى بابنه كفّارةً عن ذنوبهم! (رسالة يوحنا الأولى٤: ٨-١٠)

باختصار، إن هذه الآيات لا تتحدث عن المؤمنين، وإنما عن أعداء المؤمنين الذين يسمّون الله ربًّا كريمًا، ومع ذلك يزعمون أنه لا يقدر على غفران الذنوب. إنني لا أتذكر الآن جيدا، ولكن أغلب ظني أن الكتب المسيحية تذكر صفتي الله الكريم والرحيم معًا على العموم. ومهما يكن فإن الكرم يشمل الرحمة أيضا. وإن قول الله تعالى ﴿رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إشارة إلى أمة تسمي الله ربا كريما من جهة، وتتهمه بعدم القدرة على غفران الذنوب من جهة أخرى، فيرد الله عليهم: أيها الإنسان، ما الذي جرّأك أن تعتبر الله ربًّا كريما، ثم تزعم أنه لا يقدر على غفران ذنوب الناس، ولذلك ضحى بابنه على الصليب؟

ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

فسَوّاك: سوّى الشيءَ: جعَله سويًّا (الأقرب).. أي أزال عيوبه ونقائصه كلها.

عَدَلَكَ: عدَل السهمَ: أقامه، "جعَلني في قوم إذا مِلْتُ عدَلوني" أي قوَّموني. وعدَل فلانا: وازنَه. (الأقرب)

في أي صورة ما شاء ركَّبَك: هناك أقوال في شرح هذه الجملة القرآنية، وأسهَلُها أن "ما" هنا زائدة، والمعنى: ركَّبك في أي صورة شاء. بمعنى أنه أعطاك صورة جسمانية وروحانية حسب مشيئته. فكلمة "شاء" تشير إلى أنه تعالى اختار للإنسان صورة أرادها له.. أي أن الإنسان لم يُخلق بهذه الصورة على وجه الصدفة، بل اختار الله له هذه الصورة بنفسه.

التفسير: لقد ذُكرت هنا عدة أمور، أولها: أن الله قد خلق الإنسان، وثانيها: أنه قام بتسويته، أي أزال كل ما فيه من نقص وعيب ذاتي، وثالثها: أنه تعالى قام بتعديله.. أي جعله أكثر اعتدالاً من الأشياء الأخرى، ورابعها أنه تعالى أعطى الإنسان صورة

أرادها له، وبحسبها قام بخلقه، أي أودع فيه كفاءات عالية. وهذه الأمور الأربعة تبرز شناعة إساءة المسيحيين إلى الله تعالى. إن التاريخ المسيحي هو عبارة عن عيبيْن خطيريْن، العيب الأول: الإساءة إلى الله، وتفصيله كالآتي: (أ) إشراكهم بالله، (ب) رميهم الله بأنواع العيوب كقولهم إنه لا يقدر على أن يعفو وأن يغفر، (جـ) اتهامهم الله تعالى أنه أورث خطيئة آدم في ذريته، (د) اتهامهم الله تعالى بالظلم، حيث إنه يعاقب الأبرياء مكان الآخرين. والعيب الثاني يتعلق بالناس، وتفصيله: (أ) كِبْرهم وغرورهم، حيث يفضّلون أنفسهم على الأمم الأخرى في كل شيء، (ب) إخفاؤهم حسنات الآخرين وكفرانهم بصنيعهم، (ج) اعتبارهم الفطرةَ الإنسانية نجسةً، وادعاؤهم امتلاكَ القدرات الإلهية. ولقد نبّههم الله تعالى هنا إلى خطئهم هذا قائلا: أيها الإنسان المذكور آنفا.. أي أيها المسيحي، أخبِرْني ما الذي جعلك مغرورا متكبرا على ربك الكريم؟ بمعنى أنك تعظّم الله من ناحية، وتحقّره من ناحية أخرى. فتارةً تسلّم بأن ربك كريم، وتارةً أخرى تتخذ عبدًا من عباده ابنًا له، بحجة أن الله تعالى ليس بقادر على أن يغفر للناس ذنوبهم، ولما كان غير قادر على الغفران، فلزم أن يكون هناك ما يقوم مقام الغفران، فبعث الله ابنَه الذي ضحّى بنفسه فداءً عن ذنوب الناس. هذا هو أساس مسألة الفداء أو الكفّارة التي هي أساس الدين المسيحي، والتي بناءً عليها يقوم المسيحيون بالدعاية أن المسيح ابن الله (أعمال الرسل ٩: ٢٠). مع أن عديدا من الأنبياء الآخرين، بل الشعب اليهودي أيضا قد سُمّوا أبناء الله في التوراة، حيث ورد "وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: "عِنْدَمَا تَذْهَبُ لِتَرْجِعَ إِلَى مِصْرَ، انْظُرْ جَمِيعَ الْعَجَائِبِ الَّتِي جَعَلْتُهَا فِي يَدِكَ وَاصْنَعْهَا قُدَّامَ فِرْعَوْنَ. وَلكِنِّي أُشَدِّدُ قَلْبَهُ حَتَّى لاَ يُطْلِقَ الشَّعْبَ. فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ. فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي." (اَلْخُرُوجُ ٤ : ٢١-٢٣). ثم يقول الله تعالى عن سليمان: "وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا، وَأَنَا لَهُ أَبًا، وَأُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مُلْكِهِ عَلَى إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ." (أَخْبَار الأَيَّامِ الأَوَّلُ ٢٢ : ١٠) فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما دام الأنبياء بل الصلحاء قد سُمّوا أبناء الله، فما هي خصوصية المسيح في أن يُدعى ابن الله؟ فاخترع المسيحيون ميزة للمسيح زاعمين أنّ غفران ذنوب الناس كان منوطا بتضحية المسيح، وهي خصوصية انفرد بها المسيح

دون سائر الأنبياء، ولذلك كانوا أبناء الله بمعنى آخر، وكان المسيح ابنَ الله بمعنى مختلف. وهكذا رسَّخوا في قلوب الناس بالتدريج عقيدة ألوهية المسيح الوثنية. (قاموس الكتاب (أردو) ص ٧٩٢)

والأمر الآخر الذي أدّى إلى غرور المسيحيين وكبريائهم هو قوتهم المادية وتقدُّمهم المادي المدهش. والواقع أنهم قد أحرزوا هذا التقدم لأن العلوم الإسلامية كانت متيسرة لهم كبذرة، فبنوا عليها صرح رقيهم. لقد وجد المسلمون العلوم اليونانية، فأضافوا إليها بحوثهم وازدهروا، أما المسيحيون فوجدوا علوم المسلمين، فكانت النتيجة الحتمية أن يحرزوا تقدمًا أكبر مما أحرزه المسلمون. فبإحراز هذا الرقيّ أخذتهم الكبرياء فقالوا لم يأت أي شعب قبلنا بما جئنا به من مخترعات، مع أنه كان جديرًا بهم أن يزيدهم رقيهم إنابةً إلى الله تعالى.

أما قول الله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ فقد نبّه به المسيحيين، وكأنه قال ليتكم فكّرتم في الله الذي خلقكم، فارتدعتم عن هذا الظلم! ورد في التوراة: "وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا. هذِهِ مَبَادِئُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حِينَ خُلِقَتْ، يَوْمَ عَمِلَ الرَّبُّ الإِلهُ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ" (التَّكْوِينِ ٢ : ٣-٤). وورد أيضًا: «قُومُوا بَارِكُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ مِنَ الأَزَلِ إِلَى الأَبَدِ. وَلْيُبَارَكِ اسْمُ جَلاَلِكَ الْمُتَعَالِي عَلَى كُلِّ بَرَكَةٍ وَتَسْبِيحٍ. أَنْتَ هُوَ الرَّبُّ وَحْدَكَ. أَنْتَ صَنَعْتَ السَّمَاوَاتِ وَسَمَاءَ السَّمَاوَاتِ وَكُلَّ جُنْدِهَا، وَالأَرْضَ وَكُلَّ مَا عَلَيْهَا، وَالْبِحَارَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَأَنْتَ تُحْيِيهَا كُلَّهَا" (نَحَمْيَا ٩: ٥-٦). فكأن الله تعالى قد نبّههم هنا إلى أنه تعالى ما دام هو خالقهم فلماذا ينسبون مُلْكه إلى غيره؟

ثم نبّههم بقوله تعالى ﴿فَسَوَّاكَ﴾ إلى أنه خلقكم مبرَّأين من العيوب. لقد جعل الله تعالى بحكمته الكاملة في الفطرة الإنسانية علاجًا لكل ما يوجد فيها من نقص، فمثلا إذا كان الإنسان يتعرض لمصاعب كبيرة، فقد زوّد الله فطرته إزاء ذلك بميزة الصبرَ على الشدائد، وإذا كانت جراثيم شتى الأمراض تهاجم الإنسان، فقد خلق الله إزاءها مناعة تلقائية في جسده، وهكذا تفنى كثير من الأمراض تلقائيًا في النفس البشرية. فيقول الله تعالى أنه ما دام قد جعل علاج أمراضكم الجسدية في دمائكم

وشفاءَ أمراضكم الخُلقية والروحانية في أنفسكم، فكيف يمكن أن يتَبع طريقة غير طبيعية لنجاتكم، فيقتل البريءَ على الصليب لخلاصكم؟ وكأنه ﷻ متعطش للدم، فلا يترك أحدا من دون أن يشرب دمه، والعياذ بالله.

أما قول الله تعالى ﴿فَعَدَلَكَ﴾، فنبّه به إلى أنه لم يُصلِح أنفسكم فحسب، بل خلقها أفضلَ من الكائنات الأخرى، فصرتم أهلاً للحكم على المخلوقات الأخرى. وهذا يعني أن الله تعالى إذ كان قد منح الإنسان كمالاً ذاتيًا.. أي جعله كاملاً في ذاته، فإنه قد منحه كمالاً نسبيا أيضا.. أي جعله أكمل من المخلوقات الأخرى؛ فكيف يصح بعد ذلك الظن أن الإنسان بحاجة إلى فداء ابن الله تعالى لنجاته؟ وكيف يجوز للشعوب أن تتفاخر على الشعوب الأخرى وتحتقرها وتزدريها نتيجة التقدم الذي أحرزته نتيجة القوانين الربانية؟

ولنتذكرْ أن قول الله تعالى ﴿فَسَوَّاكَ﴾ لا يشير إلى التسوية العادية الجسدية فقط، بل فيه إشارة أنه تعالى قد خلق في الإنسان كفاءات عالية لو استغلّها لحظِي بلقاء الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿فَعَدَلَكَ﴾ فإشارة إلى أن الله تعالى قد قام بموازنة قوى الإنسان ليرى ما إذا كان قد صار مزوَّدًا بالكفاءات التي تساعده على المهمة التي خُلق من أجلها، وهي نيابة الله على الأرض.. أي ليرى ما إذا كان قد صار أهلاً للحُكم على المخلوقات الأخرى أم لا. وبهذه الموازنة قد زود الله تعالى الإنسانَ بكل القوى التي تجعله أهلاً للحُكم على الدنيا المادية. لقد سبق أن ذكر أن للعدل معنيين، أولهما: التقويم، وقد أُشيرَ إليه في قوله تعالى ﴿فَسَوَّاكَ﴾، والمعنى الثاني هو الموازنة، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وإلا تصبح كلمة ﴿فَعَدَلَكَ﴾ تكرارًا عابثًا لا يليق بالقرآن الكريم. فالمراد من قوله ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أن الله تعالى قد أودع الإنسانَ كفاءات عليا بالمقارنة مع المخلوقات الأخرى تمكّنه من الحُكم عليها والنيابة عن الله في الأرض. وقد بيّن الله تعالى بذكر هذا الموضوع أنه إذا نال قوم الحُكمَ في الدنيا وأحرزوا تقدمًا علميا، فعليهم أن يكونوا شاكرين لله تعالى إذ زوّدهم بهذه القوى، لا أن يصبحوا مزهوين متكبرين بما عندهم من العلم والحُكم، فيعلنوا التمرد على

حكم الله تعالى، ويدّعوا الفضلَ على الآخرين، فيرجعوا بغضب الله وبسخطه بدلاً من أن ينالوا مغفرته.

ثم قال الله تعالى ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ليشير إلى أنه تعالى أعطى الإنسان صورة أحبّها ورضيها له، أي زوّده بقوة الاتصاف بصفات الله تعالى، لأن صورة الله أفضل الصور. فمن ذا الذي هو أكثر حظًّا ممّن وُفِّق لأنْ يتصوّر بصورة الله تعالى؟ جاء في التوراة أن الله خلق الإنسان على صورته حيث قيل: "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ" (التَّكْوِينِ١: ٢٧). وهذه الفقرة إنما تعني أن الله تعالى قد زوّد الإنسان بقوة الاتصاف بصفاته تعالى، وكأن بوسعه أن يصبح مظهرًا لله تعالى من حيث الصفات. وقد أُشير إلى هذا المعنى في الحديث الشريف حيث قال رسول الله ﷺ: "تَخلّقوا بأخلاق الله." (تفسير الرازي: سورة النساء، قوله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً، إحياء علوم الدين)

فجملةُ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ إما تفسير لقوله تعالى ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾.. أي أنه تعالى خلقه خَلْقًا أراده له، وسوّاه تسويةً أحبَّها له، وعدَله عدلاً شاءه له؛ أو أن المراد منها أن الله تعالى بعد أن زوّد الإنسان بالكفاءات اللازمة وهب له صورة أحبّها له.. أي زوّده بقوة التخلق بأخلاق الله. والحق أن هذا المعنى الثاني هو الأصحّ عندي، أي أنه تعالى أعطاه صورة روحانية، ذلك لأن الصورة الجسمانية قد ذُكرتْ من قبل في كلمة ﴿خَلَقَكَ﴾، ولا داعي لتكرار هذا المعنى، فثبت أن هذه الجملة تتحدث عن تكميل صورته الروحانية. ومن الأدلة على ترجيح هذا المعنى على المعنى الأول أن أنف الإنسان وأذنه وفمه وغيرها من الأعضاء ليس مما ينظر الله إليه، وإنما صورته الروحانية هي التي ينظر الله إليها بإعجاب، وإنْ كان أنفه وأذنه ووجهه يفتقد إلى الجمال الظاهري. إذن، فقوله تعالى ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ تعني

أننا بعد أن زوّدنا الإنسان بكل القوى اللازمة علّمناه كلّ المبادئ الروحانية المرضية عندنا، التي تؤهله لأن يكون مَظْهرًا لنا.

الحق أن قول الله هذا إشارةٌ إلى أن أي صورةٍ أرادها للإنسان في عصر من العصور قد وهبها له فعلاً؛ فالصورة الروحانية التي ارتضاها الله تعالى للإنسان في زمن نوح عليه السلام علّمه المبادئ الملائمة لها، والصورة التي كانت مناسبة لزمن إبراهيم عليه السلام علّمه المبادئ الملائمة لها، والصورة التي كانت تليق بزمن موسى وعيسى -عليهما السلام- علّمهما الله مبادئها، والصورة التي كانت مناسبة لزمن محمد ﷺ علّمه الله مبادئها الملائمة. كما أن كل قوم تقدموا ماديًا واخترعوا شتّى المخترعات في شتى المجالات والعلوم بحسب بيئتهم وظروفهم. وكأن الله تعالى يقول هنا لقد أنزلنا المعارف الروحانية والعلوم المادية بحسب أحوال وضرورات كل عصر. لقد أنزلنا التوراة عندما كان الناس بحاجة إليها، وأنزلنا القرآن عندما كان الناس بحاجة له، وعلّمنا العلوم اليونانية عندما كان العقل الإنساني قادرًا على استيعابها، وأنزلنا العلوم العربية حينما قدر الإنسان على فهمها، وأنزلنا العلوم الغربية عندما صار الإنسان أهلاً لتلقّيها. فكيف تتفاخرون على الآخرين وتكفرون بنعم الله وتعرضون عن الدين الحق؟

ذهبت مرة إلى مدينة "لاهور" حين كنت في العشرين من عمري، وأقمت عند "ميان محمد شريف" الذي كان تربطني به أواصر صداقة، فقال لي: تعال نذهب للحوار مع قسيس اسمه مستر وود، وكان عميدا للكلية التبشيرية هنالك. فذهبت. وكان القسيس لا يعرف الأردية جيدا، كما كنت لا أعرف الإنجليزية جيدا، ومع ذلك دار الحديث بيننا، إذ ساعدني بالإنجليزية وساعدته بالأردية. قلت له: كيف نال إبراهيم وموسى عليهما السلام النجاةَ؟ فالطريق الذي نالا به النجاة سينال به الناس النجاةَ اليوم أيضا. قال: لقد نالا النجاة بإيمانهما بالمسيح. قلتُ: كيف ذلك وقد كانا قبله؟ علمًا أن القرآن الكريم أيضًا قد أثار هذا السؤال مفنّدًا زعم النصارى أن إبراهيم كان نصرانيا، فقال كان إبراهيم قبل المسيح، فكيف يُعَدّ من النصارى؟ فقلت للقسيس: إن ما تقوله باطل تماما. فما هو دليلك على أن إبراهيم وموسى كانا مؤمنين بالمسيح؟ قال: إن داود قد تنبأ بولادة شخص من أولاده يكون ابنًا له. قلت: لم يكن المسيح من

أولاد داود، فكيف تنطبق عليه هذه النبوءة؟ فقد ورد في الإنجيل نسب المسيح عليه السلام في موضعين: متى ١: ١-١٦، ولوقا ٣: ٢٣، وقد جاء في الموضعين كليهما أن يوسف الذي تزوج مريم كان من أولاد داود! فكيف كان يسوع من أولاد داود و لم يكن ابنَ يوسف، بل قد وُلد من دون أب؟ والمعروف أنه لا يُنسَب الولد إلى أمه عند بني إسرائيل وإنما إلى أبيه. فالواقع أن ولادة المسيح من دون أب تتنافى تماما مع ادعائك بكون المسيح ابنَ داود. ثم كيف ثبت إيمان إبراهيم بالمسيح من خلال نبوءة داود؟ فداود هو الذي تنبأ بهذه النبوءة، فكيف ثبت بها إيمان إبراهيم بالمسيح؟ فقال القسيس: قد ورد أن إبراهيم وُعد برقي أولاده. قلتُ: إن المسيح لم يكن من نسل إبراهيم، وإذا كانت هناك نبوءة عن رقي أولاد إبراهيم، فإنها لا تخص إلا أولاده، أعني أنها تخص النبيَّ ﷺ لا المسيحَ الذي لم يكن ابن إبراهيم بل كان ابن الله. وإذا كان المسيح ابنَ إبراهيم فقد انتهت قضية بُنوته لله. وبعد نقاش طويل تضايق القس وقال: هناك مثل يوناني أن السؤال يمكن أن يثيره كل أحمق، ولكن لا بد للجواب من إنسان عاقل. وكان في طبعي حماس في تلك الأيام، فلم ألبث أن قلتُ: لقد جئتُك ظنًّا مني أنك عاقل. لقد عرفتُ فيما بعد أنني أخطأت في جوابي، إلا أنه كان قد سفّهني فرددت عليه قولَه.

إذن، فقد بيّن الله تعالى في قوله ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أننا لم نزل عبر العصور المختلفة نترل للناس تعاليم مختلفة بحسب ضرورة كل عصر، وكل منها كان مناسبًا لحاجات إنسان ذلك العصر، إذ كان يستطيع الفوز برضا الله تعالى بالعمل به. فرغم رؤية سُنَّتنا هذه، فإن النيْل من الأنبياء السابقين واحتقار الأمم الأخرى -كما هو دأب المسيحيين- خلافٌ للعقل، كما أن إنكار التعليم المتكامل الذي نزل بعد المسيح يتنافى مع العقل.

باختصار، فقوله ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ تنبيه من الله للمسيحيين، حيث قال تعالى أيها الإنسان المغرور، لقد خلقك ربك كرمًا منه، أي جعل خَلْقَك نتيجة صفة كرمه، ثم بكرمه قد أزال منك كل عيب قد يعيق قيامك بمسؤولياتك، ثم بكرمه جعلك أكملَ من المخلوقات الأخرى، فلمّا فعل

لك كلَّ ذلك نسيتَ غاية خلقك، وانحرفتَ ناحية أخرى. الواقع أن مثلك كمثل ملكٍ يقوم بتعبئة جيش وتجهيزه وتدريبه ويعدُّ له العدّة من سلاح ومطايا، ويبعثهم إلى حربِ العدو، ولكنهم ما إنْ خرجوا من المدينة حتى توجهوا إلى الحانات لشرب الخمر ولعب الميسر. ألا يجلب هؤلاء عارًا على سيدهم؟ أيخاطبهم الله بقوله ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ليتأسف عليهم ويزجرهم، أم ليعلّمهم جوابًا يتخلصون به من المسؤولية؟ لا شك أن كلمة ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ تدل على أسف المحسن وسخطه، حيث يعدِّد نِعَمَه على من أحسن إليه، متأسفًا بأنه أراد شيئا، ولكن هذا فعل عكس ما أُريدَ.

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الدين: الجزاءُ؛ المكافأة؛ الحساب؛ القضاء. (الأقرب)

التفسير: أي أننا نقول لكم القول الحق، أما قولكم أن خطاياكم ستغفر بإيمانكم بالمسيح ليس إلا مجرد عذر، والحق أنكم لا تؤمنون بالمغفرة وعدم المغفرة، إذ لا تؤمنون بالقيامة. وهذا ما نراه على صعيد الواقع، فحتى القسيسين أيضا لا يؤمنون بالقيامة إيمانًا حقيقيا. لقد وجدت أنهم حينما يتحدثون عن القيامة، فإنما يعنون بها نزول المسيح من السماء ثانية،✪ أما القيامة التي ستأتي بعد فناء البشرية فلا يوقنون بها.

✪ عقيدتهم هذه مذكورة في كتبهم. فمثلا هناك كتاب بالأردية باسم (دعائى عام) نشَرَتْه "جمعية المعرفة المسيحية"، وقد جاء فيه ضمن أدعية الصباح أن على كل داعٍ أن يدعو كالآتي: أؤمن بالإله الآب القادر مطلق القدرة وخالق السماوات والأرض وبيسوع المسيح الذي هو ابنه الوحيد وربنا، والذي أُلقي في البطن بقدرة روح القدس ووُلد من مريم العذراء. لقد أُوذيَ في عهد بيلاطس وصُلب ومات ودُفن ونزَل في عالم الأرواح، ثم أُحييَ من الموتى في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الإله الآب القادر مطلق القدرة، وسيأتي للعدالة بين الأحياء والأموات. (دعائى عام، (أردو) ص ١٠)

كما ورد في المرجع نفسه ص ٢٤٥ تحت عنوان: تعميد الأطفال علنًا: "إنه (المسيح) سيرجع من هناك في آخر الدنيا للدينونة بين الأحياء والأموات."

وسبب ذلك أنه لا ذكر للقيامة في الديانة اليهودية. أما نحن فنؤمن أن التوراة لا بدّ أنها ذكرت القيامة؛ إذ من المحال أن يخلو كلام الله من ذكرها، ولكن ليس في التوراة الحالية أي دليل قطعي على القيامة. لا شك أن القرآن قد أخبر أن اليهود كانوا يقولون لن يعذبنا الله إلا أياما معدودة، ثم يغفر لنا (البقرة:٨١)، إلا أن العثور على عقيدتهم هذه في مصادرهم القديمة أيضًا يتطلب منا جهودًا مضنية. فلو كانت كتبهم تذكر القيامة بكثرة لما اضطررنا لهذا البحث المضني. الواقع أن الديانة اليهودية قد ذكرت القيامة قليلا حتى إن معظم اليهود ينكرون عقيدة القيامة كلية، ولذلك يتكالبون على حطام الدنيا. وهذا هو حال المسيحيين أيضا، ولذلك يقول الله تعالى لهم ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.. أي لِمَ تستدعون عذاب الله بإنكاركم الصريح بالقيامة؟

ومن معاني قوله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أن الإنسان إذا أحسن استخدام كفاءاته نال الراحة، وإذا أساء استخدامها وقع في العذاب. فكأن الله تعالى يقول لهم: ما دمتم تستخدمون قدراتكم الموهوبة من ربكم الكريم في عصيانه، فلا بدّ أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم، وتروْا عاقبته الوخيمة في النهاية.

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾

التفسير: يتضح من القرآن الكريم في مواضع أخرى أن الله تعالى يحفظ أعمال الإنسان وأن الملائكة تتكفل بذلك، كما تنصّ الأحاديث الصحيحة على هذه الحقيقة. فتسجيل الأعمال أمرٌ لا شك فيه، ولا خصوصية للمسلمين فيه، فأعمال المسيحيين واليهود والزرادشتيين وغيرهم أيضًا ستسجل. فأعمال كل إنسان تسجَّل سواء أكان

فقد اتضح من الجملة الأخيرة تمامًا أن المسيحيين يروْن أن القيامة هي المجيء الثاني للمسيح. (المفسر)

كافرا أو متدينا، مؤمنا أو مشركا، وسيسأل عنها يوم القيامة. واختراع جهاز اللاسلكي في هذا العصر قد أكد بيان القرآن الكريم أكثر، إذ ثبت به أن كل حركة يقوم بها الإنسان، مهما كانت خفيفة، تنتشر في الجو، وبتعبير آخر إنها تسجَّل في الجو فورا. وإلى متى ستظل تلك الحركة أو الصوت محفوظة في الجو؟ أما أنا فإني آمل دائمًا أن يأتي زمان نسمع فيه أصوات السابقين عبْر جهاز ما، فنسمع به صوت نابليون بونابرت من فمه مثلا؛ أو إذا لم نستطع سماع أصوات السابقين فقد يُخترع جهاز نسمع به الأصوات التي تنتشر الآن في الجو بعد يومين أو أربعة أو عشرة. ولا شك أن المذياع والفونوغراف يحققان هذا الهدف حيث يخطب ملِكُ بلد ويعاد خطابه بعد يومين أو أربعة مثلا. إذن، فاللاسلكي والفونوغراف قد أثبتا معًا صدق القرآن الكريم. الحقيقة أن أي عمل للإنسان لا يضيع، بل يترك بصمته حتمًا بطريق أو آخر، فيظهر بعد عدة أجيال أحيانًا. كان الناس في الماضي يقولون في استغراب: كيف يمكن أن تُكتب أعمال الإنسان؟ ولكن اللاسلكي والفونوغراف قد هيّآ دليلاً جديدا على صحة بيان القرآن الكريم.

إن كل ما قاله القرآن الكريم عن يوم القيامة نؤمن به ونوقن أنه واقع حتمًا في يوم من الأيام، فتشهد يد الإنسان ورِجله على أعماله ونوعيتها. قد يكون في يوم القيامة جهاز توضع عليه أعضاء الإنسان من يد ورجل ولسان وغيرها، فتخبر كلّ ما فعل بها، وكأن مسجِّلا سيعمل ويقول للإنسان: تعال واسمعْ ما كنت تأتيه من أعمال، فيسمع أنه يُسبِّح حينًا، ويسبّ حينًا، ويكذب حينًا، فينتابه الخجل والندم. لقد جاء في القرآن الكريم عن المؤمنين أنهم يحاسَبون حسابا يسيرا (الانشقاق:٩)، ومعناه عندي أن الله تعالى يريد العفو عن المؤمن، فلن يفضحه يوم القيامة بالسؤال عن أعماله بالتفصيل، وإنما يكتفي بالسؤال عما إذا كان حسابه الإجمالي صحيحا أم لا، فإذا كان حسابه الإجمالي على ما يرام، فيقول الله: خُذوه إلى الجنة؛ وهكذا تظل سيئاتهم في الخفاء. أما مَن لم يكن حسابه الإجمالي صحيحا، فيقول الله تعالى أَخرِجوا سِجِلَّ أعماله واعرضوه عليه كله، وهكذا ستُعرض عليه سيئاته واحدة تلو الأخرى، فيُفضح ويخزى أمام الأولين والآخرين.

أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ خاصا بالمسيحيين، فالمراد من الحافظين الكرام الكاتبين في رأيي هو المبعوثُ الرباني في هذا الزمن وجماعتُه. إذًا فالله تعالى يخبر هنا المسيحيين: سنأتي بقوم يسجّلون أعمالكم الوثنية ويحفظونها جيدًا، لأن مهمتهم إبطالُ أعمالكم الشركية والقضاءُ على سمومها. فلأن مهمتهم تفنيد عقائدكم الوثنية فلسوف يسجّلون ما تفعلون وسيعلمونه جيدا.

قوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ لا يعني أنهم سيعلمون كل ما يفعله المسيحيون، بل المراد أنهم سيعلمون حقيقة أعمالهم جيدا؛ ذلك لأن المسيحية تخدع الناس وتحاول تصوير سيئاتها أمامهم كحسنات، ولكن هؤلاء القوم لن يقعوا في خداعها، وسيعرفون نواياها، ويعلمون حقيقة سرائر المسيحيين جيدًا.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٥﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

الأبرار: جمعُ البَرِّ. وبرَّ والدَه: أحسنَ الطاعة إليه ورفِقَ به وتحرَّى مَحابَّه، وتَوقّى مكارهه. (الأقرب)

فالأبرار هم الذين يحسنون الطاعة، ويعاملون برفق، ويعملون جاهدين لكي يفوزوا برضى الله ويتجنبوا سخطه ﷻ.

نعيم: النعيم: المالُ؛ الدَّعَةُ، ورجلٌ نعيمُ البال: هادئُ البال مرتاحه؛ ونعيمُ الله: عطيَّته. (الأقرب).

إن كلمة ﴿النعيم﴾ تُوهِمنا نحن غيرَ العرب كأنها صيغة جمعٍ، وكنتُ أظن هكذا لمدة طويلة، وقد ترجمها المولوي محمد علي المحترم أيضا بصيغة الجمع، ولكنها ليست كذلك، وإنما معناها النعمة فقط.

التفسير: يبدو من قوله تعالى ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ أن المؤمنين في نعيم، وأن الفجّار في جحيم، غير أن الله تعالى قد أوضح بعد ذلك ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾.. أي أنهم سيدخلونها يوم الجزاء.

لا شكّ أن كلمة (يَصْلَون) تُستعمل لدخول النار لا لدخول الجنة، وقد وردت بحق الكفار هنا، ولكن من الأساليب العربية أنهم يستعملون الفعل الخاص بأمر قاصدين به الأمر الآخر أيضا؛ ويبدو أن الله تعالى لم يذكر هنا دخول المؤمنين الجنةَ لأنه مفهوم – ضمنيًا– من دخول الكافرين النار. وعليه فستعني هذه الآية أن التدبر سيكشف عليكم، أيها المسيحيون، أن لا حاجة بكم للانتظار حتى بعد الموت، بل سترون أن المؤمنين في الجنة في هذه الدنيا نفسها وأن الكافرين في النار في هذه الدنيا نفسها؛ أي أن قلوب الكافرين تفتقر إلى الطمأنينة التي تملؤها سكينةً، فيرون رغم أموالهم وثرواتهم أن جهودهم لا تأتي بالنتائج المرضية، وعلى النقيض يجدون المؤمنين يتمتعون باليقين والأمل رغم ما هم فيه من شدة وضيق ومصائب في الظاهر، وأنهم ينعمون بالجنة في هذه الدنيا برؤية انتصار دينهم ومستقبلهم المشرق.

الواقع أنّ مَن ليس عنده إيمان صادق بالله تعالى فلن يجلب له ثراؤه –مهما بلغ– سكينةً ولا سلوانًا. إن فلاسفة أوروبا متفقون كلهم أن قلوب الأوروبيين قد خلت من السكينة، ورغم ما عندهم من ثراء وقوة في الظاهر إلا أن في قلوبهم قلقًا واضطرابا أفقدهم المتعة بثرائهم؛ فلا يجدون الطمأنينة رغم توافُر شتى أسباب الراحة والهدوء، بل هناك جحيم تشتعل في قلوبهم دائما. ولكن المؤمن يشعر كأنه في الجنة في هذه الدنيا. لا يكون عنده مال ولا ثراء، ولكن قلبه مطمئن فيشعر كل حين أنه في جنة الله.

هناك حادث شهير للمسيح الموعود عليه السلام يبين كيف أن المؤمن في الجنة دائمًا. رُفعتْ إلى قاضٍ قضية ضد المسيح الموعود عليه السلام، فأُخبر أن القاضي مصمِّم على معاقبته عليه السلام. وكان الخواجا كمال الدين هو الذي أتاه بالخبر وكان خائفًا مما سيحدث. فلما سمع المسيح الموعود عليه السلام الخبرَ احمرَّ وجهه وقال: إذا كان القاضي يقدر على محاربة أسد الله فليفعل وليَرَ عاقبته. إنه لو حاول الهجوم علينا فلن نصاب بأي أذى، بل سوف يصاب هو بجراح بالغة. (سيرت طيبة (أردو) ص ٢٦٢)

فلأن المؤمن يثق بالله ثقة كاملة فيكون قلبه مطمئنا بأنه مهما كبرت المصيبة التي ستحل به، فإن الله تعالى سينصره، وهكذا يكون المؤمن في الجنة في هذه الدنيا نفسها.

وهناك حادث للنبي ﷺ وهو مثال منقطع النظير على عيش المؤمن في الجنة في هذه الدنيا. لما كان النبي ﷺ وأبو بكر مختفيَيْن في الغار، وجاء العدو على مدخل الغار واقترب منه جدًّا، خاف أبو بكر أن يراهما العدو لو نظر داخلَ المغارة قليلا. فنبه النبيَّ ﷺ إلى الخطر، فقال ﷺ بمنتهى الهدوء: لا تحزن، إن الله معنا. (سورة التوبة:٤٠، والروض الأُنُف مجلد ٢ حديث الغار). فالمؤمن يعيش في الجنة كل حين، والكافر يعيش في النار كل حين. إذًا فالجنة والنار ملازمتان لكل إنسان، فإما أنه يحترق في الجحيم كل حين، أو ينعم بالجنة مطمئنا كل حين. ولو كان عند المرء بصيرة لرأى هذه الجنة والجحيم في الدنيا نفسها، ولكن الله تعالى يخبر أن هؤلاء الكافرين لا يرون هذه الجحيم بعد، ويظنون أن المؤمنين في الجحيم وأنهم في الجنة، ولكن لا تقلقوا لأننا سوف نكشف عليهم هذا يومَ الدين ونريهم بأعينهم الجحيم التي يحترقون فيها الآن سرًّا. يومئذ يعترف العدو أنه في الجحيم وأن المؤمن في الجنة.

وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٧﴾

التفسير: أي أن هؤلاء سيسعون جاهدين لكي لا يدخلوا هذه الجحيم، ولكنهم لن ينجوا منها، وسيأتي يوم تُحطَّم فيه قوتهم، ويُقضى على حُكمهم، يومئذ يُسحَب البساط من تحت أقدامهم. والحق أن هذه الحرب الجارية في هذه الأيام• جحيم بعينها، وقد قوّضت قوتهم، حيث بدأوا يشعرون أن انحطاط أوروبا وشيك. وكما أخبرني الله تعالى أيضًا – قد أشعتُ هذا الخبر منذ سنتين– أن هناك استعدادات في السماء لحرب شديدة أخرى، بسببها سيأتي يوم لا يقولون فيه أن زوال أوروبا قريب، بل يقولون إن زوالها قد أتى فعلا. لا شك أن الكافرين بالدين الحق سيدخلون الجحيم يوم القيامة، ولكنهم سيصلونها في الدنيا أيضا. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، ولن ينجوا منها. إنهم لن

• يشير حضرته ﷺ إلى الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

يألوا جهدًا للنجاة من هذه الجحيم، بل يسعون جاهدين لإغلاق أبوابها – بإنشاء جمعيات كعصبة الأمم مثلاً حينًا، وباتخاذ تدابير أخرى لإطفاء هذه النار حينا آخر – ولكن تدابيرهم ومحاولاتهم كلها ستبوء بالفشل. سيودّون أن يغيبوا عن ذلك اليوم، ولكنهم ما هم عنه بغائبين. سيبذلون كل ما في وسعهم لينجوا من هذه الجحيم، ولكن لن ينجوا منها.. بل سينقلب عليهم كل تدبير، وسيُدفَعون أكثرَ وأكثرَ إلى الجحيم التي قُدِّر لهم دخولها.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٩﴾

التفسير: اعلم أنه حيثما وردت كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ في القرآن مكررةً فإنها قد أُعيدت لشرح الموضوع المذكور هنالك، و﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ هو الموضوع المذكور هنا، فأعيدَ قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ليشرح معنى يوم الدين هنا. وكأن تعالى يقول إن أيام الدين كثيرة، وها نحن نخبركم ما نعنيه هنا من يوم الدين. ولو لم يكن إعادة قوله ﴿ومَا أَدْرَاكَ﴾ من أجل شرح الموضوع نفسه، لصار تكرارًا عابثًا، لأن ما قيل من قبل هو أيضا مما أخبر الله به و لم يعْلَمه الإنسان بنفسه، وبالتالي فقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ يصبح بلا معنى. لو كانت الأمور المذكورة من قبل مما علمه الإنسان بنفسه، لفهِمنا أنه تعالى يقول له إن هذه الأمور تعرفها، ولكن ماذا تعرف عن يوم الدين؟ ولكن حيث إن الإنسان لم يعلم هذه الأمور أيضًا إلا بإخبار رباني، فكيف يعرف حقيقة يوم الدين من دون إخباره؟ مما يدل بوضوح أن الله تعالى لم يكرر قوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ إلا ليبين مراده من يوم الدين هنا. وكأن الله تعالى يقول: تعالوا نخبركم ماذا نعني من يوم الدين هنا.

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

التفسير: أرى أن المراد من النفس هنا النفس المسيحية المذكورة في قوله تعالى من قبل ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، والمعنى أن تحالفات الشعوب المسيحية الأوروبية لن تغني عنهم شيئا. إنهم سيسعون من خلال شتى التحالفات والمنظمات والهيئات مثل عصبة الأمم لأن يتجنبوا هذا العذاب، ولكن لن تنفعهم أحزابهم ولا اتحاداتهم ولا عُصبهم شيئًا، ولن ينجوا من العذاب.

وحيث إن أساس المسيحية هو الكفارة، فيمكن أن يعني قوله تعالى ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أن كفّارتهم لن تجديهم شيئا إزاء هذا العذاب.

أما قوله تعالى ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فمفهومه واضح بالنسبة إلى يوم القيامة. أما بالنظر إلى هذه الدنيا فالمعنى أن النصارى يدْعون منذ تسعة عشر قرنا متتالية: "يا رب، ليكنْ ملكُك في الأرض كما في السماء" (متى ٦: ١٠)، ولكنهم فشلوا في إرساء مُلك الله في الأرض كما هو في السماء في هذه المدة المديدة، ولكن الله تعالى سيقيم جماعة أخرى ستنجح في إنزال حكم الله من السماء إلى الأرض وإقامة ملكوته في الأرض. فكأن المهمة التي فشلوا فيها طوال تسعة عشر قرنا ستنجزها جماعة ربانية أخرى، وسوف ينفّذ حكم الله على الأرض. ليس لله جسم حتى ينـــزل به على الأرض، وإنما المراد من مجيئه إقامة مُلكه، وهذا ما تنبئ به هذه الآية بأن ملكوت الله سيقام في الأرض في الزمن الأخير، وسيأتي الحق وسيزهق الباطل. وبهذا الخبر قد أزال الله تعالى اليأس الذي قد يستولي على القلوب نتيجة دراسة الآيات السابقة، حيث طمأن الله المؤمنين بأن لا تُراعوا، ولا يستولينَّ اليأس على قلوبكم بسماع خبر صعود القرآن من الأرض إلى السماء ووصولِ الإيمان إلى الثريا وغلبةِ الكفر على الدنيا وانتشارِ الشرك والمعصية بين الناس واختفاءِ وجه رسول الله الأغرّ عن أعين الناس وخلوِّ القلوب من شوق اتباع الصحابة ، فإننا نبشركم: ﴿الأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.. أي لا جرم أن فتنة المسيحية كبيرة جدا، ولكننا قد قررنا إقامة حكم القرآن والإسلام في الدنيا، وليس في الدنيا قوة تقدر على أن تبدّل قرارنا هذا. سنقيم الإسلام ثانية، ونوطد حكم القرآن

مرة أخرى، ونرسي حُكم محمد ﷺ في العالم كله. فلا داعي للقلق ولا مجال للقنوط، بل إن الموقف يبعث على الابتهاج والسرور، لأن الإسلام سيستردّ مجده الغابر، ويصبح غالبا على العالم كله مرة أخرى.